المنى والرؤى.. قراءة في واقع الفكر الإسلامي المعاصر

عبد الله المقبالي

لولا الرؤى ما بُلِغت المُنى. رغم كثرة مشاريع النهضة العربية والإسلامية؛ إلا أن مؤشر التحولات العالمية المعاصرة، مازال يثبت أن النهضة مزعومة، وان الأمة ما زالت تتذيل ركب الحضارة الإنسانية ، لأنها - بختصار - تفتقد رؤية للعالم بالمعنيين النظري والاستراتيجي السياسي، حسب رأي الباحث والمفكر اللبناني رضوان السيد. في مقالة بعنوان (قضايا الفكر الإسلامي المعاصر ومشكلاته: مراجعة نقدية للذات).

حاول رضوان السيد أن يقدم للقارئ طرحا تحليليا يبحث فيه أسباب تأزم الفكر الإسلامي المعاصر، وغياب المسلمين عن ساحة القوى العالمية المؤثرة. قسم رضوان السيد مقاله إلى ثلاثة أقسام، ناقش في الأول ثلاثة اتجاهات عرب/ إسلامية في تعليل سوء العلاقة بالعالم، وفي القسم الثاني بحث في غياب الرؤية الشاملة للعالم من قبل الأوساط الفكرية العربية الإسلامية، وعزا ذلك إلى القصور المعرفي، والافتقار إلى ما أسماه الوعي بالعالم. أمّا في القسم الثالث من المقالة، فقد خصصه المفكر اللبناني لمناقشة المعوقات التي تسد الطريق في وجه المثقفين الإحيائيين والأصوليين في سبيل الإصلاح والنهضة. في الثلث الأول من المقال، عرض الكاتب ثلاثة اتجاهات في الوطن العربي تباينت في تعليلها لسوء علاقة العرب بالعالم، وفهم ظواهر التشدد الديني إزاء الأمم الأخرى وثقافاتها. الاتجاه الأول، اتجاه تبريري – وهو السائد في نظر الكاتب- يعتبر كل تصرفات العرب والمسلمين طوال قرن ونصف من الزمان إنما هي ردود أفعال نظرية وثقافية أو عملية على عدوان الأمم الأخرى، ويرى الكاتب أنّ آثار هذا الاتجاه الفكري ملموسة في كتابات ذات طابع دراسي، وبيانات تحشيدية، وخطب وفتاوى، وتفاسير للقرآن، ومشروعات للدساتير. وتتجلى رؤية اتباع هذا الاتجاه ، التبريري، في تحميل الآخر المسؤولية عن الأزمة وتشدد المسلمين لكونها عدوانية بطبعها لماديتها، ويشترك في تلك الصيغ المسيحية التي سادت في العصور الوسطى إلى جانب تيارات ثقافية ثلاثة هي الماسونية، والماركسية والفرويدية. وقد جابه المسلمون العرب هذا التعنت الغربي بالحركات المناوئة للاستعمار، عن طريق الحجاج الثقافي، أو النضال الفكري ضد الاستعماريين والمبشرين. كما سعوا إلى بناء ثقافة إسلامية للحفاظ على الهوية الصلبة والطهورية التي حاول الغرب ويحاولون تذويبها. وفي رد فعل أكثر عملية على الغرب نشأت حركات الصحوة الإسلامية، التي يحملها الكاتب الكثير من إخفاقات المرحلة.

أمّا الاتجاه الثاني فهو اتجاه القوميين والتقدميين، الذين يرون أنّ لسوء العلاقة بين العرب والمسلمين من جهة والعالم من جهة أخرى طرفين وليس طرفا واحدا، هما النظام العالمي خارجيًا، وغياب حرية الرأي والتعبير داخليًا. النظام العالمي الذي تمركز في الغرب، لم يكن صراعًا دينيًا بقدر ما كان صراعًا على الموارد والنفوذ بين الاتحاد السوفيتي والكتلة الغربية، ولكن الضحية دوما هو ما عرف بالعالم الثالث، الذي يقع في دائرته سائر العرب والمسلمين كما يرى الكاتب. المشكل في القضية أنّ ثقافتي النظام العالمي اعتبر كل منهما أنّها قيمة عالمية وشاملة، وبالتالي أُهملت خصوصية الأديان والشعوب الأخرى في العالم الثالث كما اعتبر كلا الطرفين أنّ عدم إقبال المسلمين على هذه الثقافة الجديدة إنما سببها رجعية الإسلام أو تخلف المسلمين المستمر. أمّا الطرف الثاني – كما سبق ذكره- فهو غياب حرية التعبير عن مصالح الناس ومطامحهم، لكن الكاتب لم يبيّن الكثير حول هذه النقطة بل انتقل للحديث عن رأي التيار الثاني، تيار القوميين، في حركات الصحوة، حيث ذكر أنّهم يفتقرون إلى فهم التجربة التاريخية العالمية للإسلام، كما يفتقرون إلى فهم واسع للتطورات المعاصرة في المجالات العربية والإسلاميّة والعالمية. أمّا الاتجاه الثالث، في فهم تطورات العرب والمسلمين بالعالم، وهو توجّه مجموعة من المراجعين النقديين- كما نعتهم الكاتب- وهم يرون أنّ جوهر المشكل هو بالأساس سياسي اقتصادي، فعجز العرب سياسيًا واقتصاديًا دفعهم إلى التفكير والتأمل في مشكلاتهم مع العالم، مثل مشكلة فلسطين، والحروب الأهلية!

في الثلث الثاني من المقال- وهو صلب الموضوع- يشن الكاتب هجومًا عنيفًا، مبررًا، ضد العرب والمسلمين من المعاصرين، حيث يرى أنّ القراءات العربية للديانات والثقافات غير العربية في الخمسين عامًا الأخيرة نادرة، ويؤكد أنّ العرب لم يعنوا – أصلا- إلا بعلاقتنا المتأزمة مع الغرب، فيما كانت الدراسات التي تدرس الآخر نادرة، إلا بعض الدراسات عن اليهود. ويتمنى الكاتب أنّها لم تكن لأنّها لا تحوي معارف حقيقية وتغلب عليها النزعة الجدالية القديمة كما أسماها. يتصاعد غضب رضوان السيّد في منتصف المقال فيصب جام غضبه على المثقفين الذين لم يجد لهم دراسة عربية أو حتى مترجمة إلى العربية في نصف القرن الأخير عن الحضارات وسنن قيامها وتطورها وانحطاطها، تتسم بالعرض الموضوعي، أو عرض المعلومات المفيدة. ثمّ يؤكد الكاتب أننا لا نملك في الفكر العربي والإسلامي المعاصر رؤية للعالم، لا بالمعنى النظري، ولا بالمعنى الاستراتيجي/ السياسي. وما ذلك إلا جزء من قصور معرفي شديد يقع في أصل هذه الأزمة المتفجرة. إذا الخلل فينا؛ إذ لم نهتم البتة بتطوير أنفسنا معرفيًا، ولا بتكوين رؤية حقيقية وواضحة تقودنا لتحقيق المنى والآمال والتطلعات. ثم يحاول الكاتب سوق الدليل «الفاقع» كما أسماه على علاقتنا المتردية بالعالم، وغربتنا عن عالمية الإسلام، وعن التعددية التي كتبنا فيها ولم نعها. وفي القسم الثالث والأخير من مقالته، عاد رضوان السيد ليؤكد أنّ أزمة الفكر الإسلامي والسياسات الإسلاميّة تعاني أزمة طاحنة، وهي بالأساس أزمة وعي، فمقدار الوعي الثقافي والديني السائد لا يسعفنا البتة في التصدي للمشكلات الحقيقية في العالم ومعه، كما يستدرك الكاتب ليشير أنّ الآخر ليس بريئًا تمامًا من كل التهم المنسوبة إليه، لكن هذا لا يبرر الاستسلام والخضوع التامين. حتى المثقف في نظر السيّد بات جزءًا من العبء الواقع على الأمّة. وقبل أن ينهي الكاتب مقاله يعاود الهجوم على حركات الإصلاح الديني التي باتت تصرفاتها معوقًا في سبيل النهوض بما تحمله من عدوانية واستبداد. الخلاصة أنّ المنى كثيرة، والرؤى الموصلة إليها ضيّقة وقليلة، إذ على الأمة كما يرى رضوان السيد أن تستفيد من أخطاء الحركات الإصلاحيّة الدينية وتتجاوز عتبات الجدل العقيم إلى رؤية واسعة شاملة للعالم، تطلع على الحضارات الأخرى وتتفاعل معها. فمشكل العرب الأول في ذواتهم، التي تركن إلى الدعة والسكون، وإذا ما حاولت التقدم اصطدمت برؤية ضيّقة للعالم لا تمكنه من التفاعل الحضاري، ولا توصله إلى قيادة العالم. إنّ مقال رضوان السيد إضافة ثمينة للمكتبة العربية، اجتهد في مناقشة قضية شائكة ومقلقة لكل المفكرين العرب، بمختلف تيّاراتهم. كما بحث جديًا في أسرار فشل مشاريع النهضة العربية والإسلاميّة. لقد كان من الأفضل لو طور هذا المقال إلى كتاب، حيث يتمكن من إيراد الأدلة والشواهد على ما يذكر، خصوصًا ما أورده في الثلث الأول من المقال.

abdullah-maqbali@hotmail.com